الإلحاد والانحرافات الجنسية

الحداثة، محاولة لتبرير الانحرافات الجنسية

للفيلسوف والمفكر الأمريكي الكبير مايكل جونز كتاب مدهش بعنوان «تفسخ الحداثيين» degemerate moderns يستكمل فيه دراسة بول جونسون للسلوك الشخصي للمفكرين المحدثين مع التركيز على العلاقة بين النظريات الأكاديمية التي وصفها هؤلاء وبين انحرافاتهم وسوء ممارساتهم الجنسية، وقد عبر جونز عن رسالة الكتاب النهائية في عنوانه الجانبي: الحداثة «Modernity» لمحاولة لتبرير الانحرافات الجنسية.

تعرض مايكل جونز في كتابه «تفسخلا الحداثيين» لكتاب عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مارجريت ميد «Margaret Mead» والمسمى: «العائدون من التاريخ السحيق في ساموا Coming of Age in Samoa» والذي حظي بمنزلة أكثر الكتب بيعًا عند صدوره عام ١٩٢٨.

تبنت مارجريت في كتابها أن المفاهيم الأخلاقية ليست إلهية المصدر، ومن ثم فإن المفاهيم والمقاييس الجنسية السائدة بين البشر هي إفراز حضاري يختلف من حضارة لأخرى.

وللوصول لهذا المعنى درست مارجريت السلوك الجنسي لسكان جزر ساموا Samoa، انتهت مارجريت في دراستها إلى أن هذا الشعب يسخر من العقد الجنسية Fidelity، ولا يرى في الزنا ما يشين أو يهدد سلامة النسيج المجتمعي، لذلك فالاغتصاب لا وجود له في هذه الجزر، كذلك ليس لهؤلاء شكل شرعي - الزواج - للعلاقات الجنسية.

لقد كان تأثير دراسة مارجريت ميد على الحضارة الغربية كبيرًا، فقد

روجت للإباحية الجنسية في الغرب كما دعمت مفهوم النسبية الحضارية بين الشعوب.

لم يفكر أحد طوال خمسين عامًا في مراجعة ما انتهت إليه دراسة مارجريت حتى قام بذلك عالم الأنثروبولوجيا النيوزيلاندي «ديريك فريمان».

أعلن فريمان أن مارجريت قد أخطأت بشدة في فهم حضارة الساموانيين وسلوكهم الجنسي، بل وجد فريمان أن هذا الشعب متحفظ تمامًا في سلوكه الجنسي حتى إنه يعتبر الاغتصاب والزنا جرائم خطيرة قد تصل عقوبتها إلى القتل، ومن ثَم فهو شعب يحترم كثيرًا رابطة الزواج ومؤسسة الأسرة.

كيف سقطت مارجريت ميد في هذا الخطأ الكبير؟

يبين مايكل جونز وآخرون أن مارجريت قد تأثرت في رصدها لسلوك الساموانيين بقيمها الشخصية سواء عن قصد أو غير قصد، تلك القيم التي تتمركز حول مفهوم «النسبية الحضارية» والذي تجد فيه تبريرًا للحرية الجنسية.

لقد كانت مارجريت تحيا حياة مليئة بالممارسات الجنسية اللاشرعية، كما ظلت تمارس الجنس المثلي مع زميلتها عالمة الأنثروبولوجيا والنسيبة الحضارية «روث بنيدكت Ruth Benedict « لقد تأثرت أمانة ودقة بحث مارجريت بما تعانيه من انحرافات جنسية ولا شك أنها نموذج واضح لكيف تؤثر بيئتنا النفسية وانضباطنا الأخلاقي على ما تعتنقه من أفكار، بل يذهب هذا التأثير إلى مدى أبعد فيما يؤثر على قدرتنا على رصد الظواهر من حولنا وعلى قيامنا بالبحث العلمي.

تقرير كنزي المضلل:

مثال آخر يطرحه «مايكل جونز» في كتابه «تفسخ الحداثيين» ويعكس تأثير منظومتنا الشخصية الأخلاقية على منظومتنا الفكرية، إن «ألفريد كنزي «Alfred Kinsey صاحب «تقرير كنزي Kinsey Report» الشهير الذي أثر جذريًا في الحياة الجنسية للأمريكيين، وانعكس على الحياة الجنسية للبشرية كلها، فقد كان التقرير رافدًا مهمًا للثورة الجنسية في الغرب في ستينيات القرن العشرين.

كان كنزي بالإضافة لتخصصه في «الطب النفسي «Psychiatry متخصصًا في «علم الحشرات «Entomoleyist وقد بدأ اهتمامه بالحياة الجنسية للبشر منذ منتصف الثلاثينيات من عمره، فكان يحرص على تسجيل تاريخ الممارسة الجنسية six Historygl لمرضاه، وكان يستعين في مناظرته وعلاجه للمرضى بأفلام إباحية يقوم بتصويرها بنفسه، وما زالت عشرات الآلاف من المجلدات والأفلام الجنسية موجودة في مركز كنزي للأبحاث الجنسية في جامعة إنديانا.

وباعتباره من علماء البيولوجيا التطورية اهتم كنزي بالتنوع في السلوك الجنسي، فكان يسعى جاهدًا في إثبات وجود التنوع في سلوك البشر الجنسي مثلما لاحظه في الحشرات، وقد انعكس هذا الفهم على منهج البحث عند كنزي فكان الكثير ممن ناظرهم من المومسات والمسجونين والشواذ، وقد غذته هذه العينات بقدر كبير من التنوع في السلوك الجنسي، وهو ما أثر على تصوره لما أطلق عليه «السلوك الجنسي الطبيعي Normality « لقد كان ذلك خطأ فادحًا في منهج البحث العلمي فقد كانت العينة البحثية – الأشخاص محل البحث – منتقاة بشكل يجعل نتائج البحث محددة قبل بدايته، وكانت العينة النتيجة أن وسع كنزي مفهوم

«السلوك الجنسي الطبيعي» بأن ضم إليه الممارسات غير الطبيعية.

لقد اتفقت نتائج أبحاث كنزي مع نتائج أبحاث مارجريت ميد في أنها تدعم مفهوم «النسبية الأخلاقية «Moral Relativisn ويؤكد كنزي هذا المعنى قائلًا: «تنتظم الفوارق الفردية في السلوك الجنسي في منحنى منتظم مستمر ليس فيه حد فاصل بين الطبيعي وغير الطبيعي ليس فيه صواب وليس فيه خطأ».

لقد كان الخطأ المنهجي الأكبر لكنزي أن دخل ساحة البحث العلمي بمفهوم مسبق، وهو مفهوم النسبية الأخلاقية فسعى إلى دعم مفهوم التنوع Variatien فأدى ذلك إلى اعتبار الانحرافات الجنسية سلوكًا طبيعيًّا.

وحتى تكتمل الفائدة من دراسته كان ضروريًّا أن يبحث مايكل جونز في سلوك كنزي الجنسي. لقد وجد جونز أن كنزي كان مزدوج العلاقة الجنسية Bisexual كما كان ما يوشيا Masochisticكما كان يشجع تلاميذه على العربدة وممارسة أشكال الانحرافات الجنسية المختلفة، إن ذلك يكشف كما في حالة مارجريت ميد - تأثير الحالة الأخلاقية والسلوك الفردي والخلفية الجنسية والشخصية على ما يتبنى الإنسان من قناعات عقلية.

تقنين الشذوذ الجنسي:

عبر الأطلنطي ظهرت في إنجلترا في النصف الأول من القرن العشرين مجموعة تبنت مفاهيم أعمق وأوسع من مفاهيم كنزي بخصوص الحرية الجنسية ورفض الالتزام الأخلاقي، أنها مجموعة «بلومز بري Bloomibury « الشهيرة التي ضمت مجموعة كبيرة متباينة من الكتاب والفنانين وكان لها تأثير كبير الثقافة الغربية في أوروبا لقد كان الكثيرون من أعضاء المجموعة من الشواذ جنسيًّا ومن ممارسي الجنس الجماعي وكان

هؤلاء يعتبرون ممارستهم الجنسية الشاذة جزءًا من رؤية أخلاقية وجمالية أشمل محورها «النسبية الأخلاقية» التي لا تمايز بين صواب وخطأ، لكنها تختلف تبعًا لخبرة كل شخص ودوافعه وقدرته على التحكم في نفسه، لذلك كانوا يرفضون تمامًا الأعراف والمفاهيم الاجتماعية السائدة، ومن ثم في أعمالهم التي أنتجوها في تخصصاتهم المختلفة.

لقد كانت مجموعة بلومز بري مثالًا آخر على كيف أن الميول الشخصية الأخلاقية والسلوكية توجه المفاهيم والأفكار وليس العكس.

الشذوذ الجنسي والحداثة:

يلخص جونز أفكار من عرضنا من الشخصيات (مارجريت ميد - وكنزي - ومجموعة بلومز بري) في أن الجنس غير التقليدي (يقصد ما نتعارف عليه بالشذوذ الجنسي) والحداثة متضافرين متداخلين دون إمكانية للانفصال للأبد حتى أن الاقتصادي البريطاني «جون كينيس John Keynes» كان دائمًا يصف الحداثة بأنها اللواط الأعلى Higher Sodomy، ونختم وقفتنا مع مايكل جونز بأن نلخص ما قصد إليه في كتابه «المفكرون» بقوله إن الخطايا الجنسية مدمرة مفسدة للعقل، وإذا كان معظم من ذكرنا ملاحدة فإن نظرة إلى الواقع الأمريكي الحالي تؤيد ما ذهب إليه جونز.

فكبار المؤسسين والداعين لمنظمات ومجتمعات الانحرافات الجنسية من الملاحدة، وتقوم صناعة الجنس والمنتجات الإباحية Porno بشكل رئيسي على الملاحدة.

إن علاقة الفسق بالإلحاد ليست غريبة، ألم يقل ريتشارد دوكنز أحد كبار الملاحدة المعاصرين: «إن الوجود لا تصميم فيه ولا غاية ولا شر ولا خير لا شيء إلا لامبالاة مؤلمة».

إن غياب الإله قد جعل الوجود - كما يقول نيتشه - وحشيًّا فظًّا Brutish

وكما قال ديستوفسكي: «إذا مات الإله فكل شيء مباح».

- الإلحاد والتمركز حول الذات:

يقول الفيلسوف الأمريكي مورتمر آدلر:» إن التدين يحتاج إلى تغيير جذري في طريقة حياة الإنسان يشمل اتجاهات اختياراته اليومية وأهدافه العامة التي يسعى إليها في حياته اليومية وأهدافه العامة التي يسعى إلى تحقيقها» قال آدلر ذلك عام ١٩٧٧وعندما تبنى المسيحية عام ١٩٨٤ وتم تعميده قال: «إذا كان الإيمان صعبًا فعدم الإيمان أكثر صعوبة» المشكلة في الغرب أن مقابل كل آدلر يوجد الكثيرون من أمثال مايكل أو نفراي الداعي لمبدأ النوة، ومن أمثال كريستوفر هتشنز الذي انفصل عن زوجته الأولى وقت أن كانت حاملًا في ابنه.

الشعور بالنقص والشبق إلى الشهرة:

يعتبر الكثيرون من علماء النفس أن الملاحدة يعانون عقدة نقص، وللهرب مما تسببه هذه العقدة من الشعور بالدونية وعدم الشعور بالأمان فإنهم يكتبون هذه المشاعر ويستبدلون بعقدتهم عقدة التعالي، وهذا ما يجعل الملاحدة يشعرون بأنهم متميزون وأنهم أفضل من الآخرين ومن أجل إشباع هذه العقدة يسعى الملاحدة إلى الشهرة.

وكتب علم النفس والسير الشخصية ملأى بمواقف الكثيرين من كبار وصغار الملاحدة التي تكتشف ذلك، فنجد الملحد يعلن إلحاده على الملأ ليحقق الشهرة ليشعر بذاتيته وتميزه، والمتابع لكتابات الملاحدة ومواقع تواصلهم الاجتماعي يدرك بوضوح كم يحبون أن يُعرفوا بتفردهم ودقتهم وحريتهم الفكرية وتمردهم واستنارتهم. صدق الفيلسوف الملحد «جوليان باجيني «Julian Boygini حين قال: «يحتاج الملاحدة لعدو حتى يشعروا بذواتهم».

شخصيات متمركزة حول ذواتها:

ولإثبات هذا المفهوم يعرض عالم النفس الأمريكي بول فيتز مواقف وصفات بعض كبار الملحدين كما وردت في كتب سيرهم الشخصية ومن هؤلاء:

- فولتير:

يتفق كل المؤرخين والنقاد أن السيرة الشخصية لفولتير تكشف بوضوح أنه كان يتسم بخيلاء عقلية كبيرة رفعت سطح طموحاته وتطلعاته وجعلت الشهرة شاغله الأول.

- لودفيج فيورباخ:

كان فيورباخ شخصية انغزالية للغاية، ويرجع ذلك إلى عجزه عن تحقيق طموحاته العقلية إذ كان يعتبر نفسه فيلسوفًا في غاية الأهمية للبشرية.

- نيتشه:

لم تكن غطرسة نيتشه وعشقه للشهرة خافية على أحد، بل إن فلسفته كلها تنطلق من هذه السمة، فقد تبنى تقديس القوة والإنسان السوبر مان، ولكي يروج لهذا المفهوم أعلن مقتل الإله، كما حاول إحلال نفسه محل المسيح!! فكان يصف نفسه بالإنسان المصلوب، وفي سنوات جنونه أعلن نيتشه نفسه «عدو المسيح» فكان يعادي كل تعاليم المسيحية، لقد أراد أن يصيب العالم بالجنون بأن يقتل الإله فكانت النتيجة أن أصيب هو بالجنون ودمر نفسه.

- سيجموند فرويد:

لم يكن الدارسون لفرويد مخطئين حين وصفوه بالإنسان الطموح المتطلع فقد وصف نفسه قائلًا: «لست بالمرة رجل علم أو رجل تجارب

أو رجل ملاحظة وتأمل، فما أنا إلا مغامر مخاطر» كما وصف نفسه بأنه «الفاتح المنتصر».

- بارون دوهولباخ:

كان هولباخ من ملاحدة فترة الاستنارة المشهورين، قام بتضخيم شأن عائلته وأصولها العرقية، وفي الوقت نفسه ترفع عن والديه ولفظهما، كما اشترى لقب البارون حتى يضفي على نفسه صفة النبلاء وسعى للانتماء إلى ما عرف بدائرة المفكرين الأحرار فحقق من الشهرة بينهم ما عجز عن تحقيقه مع والديه.

- المركيز دي صاد:

أبو السادية لم يكن يعترف بأية حدود للسلوك الجنسي، وكان يسعى لتحقيق الشهرة عن طريق إشاعة سيرته كفاسق عاهر.

- جون تولاند:

كان جون ابنًا غير شرعي، وكان يسعى لمحو هذه الحقيقة من ذاكرة المجتمع من خلال النجاح والتفوق ومصادقة مشاهير عصره - مثل جون بوك -، وكذلك عن طريق كتابة الأعمال الصادقة مثل «المسيحية ليست أعجوبة».

- ريتشارد كارليل، مارجريت سانجر:

سعيا لجذب الانتباه عن طريق الدعوة للتحكم في الحمل والإجهاض، في وقت كان ذلك سلوكًا منبوذًا لا تقوم به إلا العاهرات، وكانا يكتبان المقالات الصادمة في الصحف.

- جل جونستون:

نبذها والدها فسعت لتحقيق الشهرة التي كانت تواقة لها عن طريق

التعصب للنسوية وللشذوذ الجنسي بين الإناث.

- برتراند رسل:

وصف رسل مؤرخوه بأنه كان متغطرسًا متكبرًا حقودًا شديد البرود كثير الكذب.

- كارل ساجان:

كان كارل ساجان يسعى لتغيير الصورة عن أصله المتواضع فقد كان والده حائكًا للملابس - ترزي -، فسعى - ونجح - في تحقيق الشهرة العريضة كعالم فضاء وكاتب وإعلامي.

- كريتوفر هتشنز:

كان هتشنز يتبنى طوال حياته المهنية أسلوب «الصدقة» للحصول على الاهتمام ولفت الأنظار، فهاجم الأم تريزا ووصفها بأنها أصولية متعصبة مخادعة، تسببت في شقاء الملايين لتحقيق الشهرة وقد حصل على شهرة كبيرة نتيجة لهذا الهجوم.

وقد وصفت أستاذة الفنون الملحدة» كاميل باجليا «Camille Poglia هتشنز بأنه نرجسي - مباه بذاته محب لها - منغمس في اللذات ولا يعير اهتمامًا لأي شيء إلا لملذاته الشخصية.

وعندما أصيب هتشنز بسرطان المريء سعى لتسليط الأضواء على مرضه ثم ملابسات موته وجعله حدثًا عامًا.

- سام هاريس:

رجل تواق للشهرة ولو على حساب الحقيقة يسعى إلى ذيوع الصيت، وهو مفكر غير ملتزم نرجسي لا يقبل آراء الآخرين، ويحاول أن يجعل من نفسه محورًا ومركزًا لأي مجموعة عمل.

وقد نشر سام هاريس كتابه» خطاب إلى أمة مسيحية Letter to Christian Nation «على نفقته ليحقق الصيت والكتاب مليء بالهجوم غير المبرر على الديانات كقوله: «تتبنى الديانات مبادئ قد تدعو لقتل الآخرين من أجل أن يؤمنوا بها».

- ريتشارد دوكنز:

يدرك المتابع لبرامج دوكنز وكتبه خاصة كتابه الأخير «وهم الإله» شبقه للشهرة باعتباره المتحدث باسم الإلحاد والملاحدة بغض النظر عن الحجية العلمية، لما يفرق من استدلالات لذلك أسعده كثيرًا أن اختاره قراء مجلة كأحد كبار المفكرين في زمانه كما أسعده أن تذكره جريدة - أشهر جريدة علمانية في إنجلترا - كأحد أكثر الرجال أناقة في بريطانيا.

وفي ذلك يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس: «لقد جعلني كتاب «وهم الإله «أشعر بتوتر وارتباك لكوني ملحدًا، فالكتاب الذي يعالج في المقام الأول قضية الأخلاق يتبنى حملة صليبية لا أخلاقية تتسم بالتكبر والعجرفة «فدوكنز» لا يتحدث كفيلسوف يعالج الأدلة ليصل إلى استنتاجات منطقية، لكن كواعظ أصولي يرسم طريق الخلاص ويهدد بالطرد من الرحمة» ثم يطرح روس تساؤله: «إذا كان الإله غير موجود فلم هذا التطرف الشديد ضد الدين؟».

تتفق شخصيات كل من ناقشنا حالاتهم في أنهم من ذوي الطموح الكبير مع الغطرسة والكبر والشبق إلى الشهرة.

وفي عالمنا العربي نجد في التاريخ الإسلامي شخصية ابن الرواندي كما نجد شخصية عبد الله القصيمي في التاريخ الحديث كمثلين يجسدان هذا النمط الشخصي المنحرف كما صادف كاتب هذه السطور العديد من شبابنا الذين عصفت بهم عقدة النقص وحب الشهرة فأردتهم في الإلحاد،

وقد أُسميت هذا النوع بـ»إلحاد خالف تُعرف» وسنقوم بمناقشة الإلحاد في عالمنا العربي والإسلامي في الفصل العاشر من الكتاب.

يبرر البعض إلحادهم بما يعتبرونه مصائب وكوارث تصيب البشر تحدث بسبب الإله والدين مثل ما يحدث لهم من شرور ومعاناة بسبب الأمراض والكوارث الطبيعية (وهو ما يعرف بمجالدة الشر والألم) ومثل ما يقوم به الإرهابيون المتطرفون من عمليات إرهابية ضد المدنيين الآمنين، ويعتبر آخرون أن تعاليم الكتب السماوية وما جاء فيها سطحي وتافه.

وكثيرًا ما تكون هذه الأسباب المعلنة قناعًا تختفي وراءه أسباب أعمق لرفض الإله والدين يخجل الملاحدة من إعلانها.

فبعضهم يتبنى الرفض بسبب تجارب شخصية ومعاناة مؤلمة، وبعضهم يحمل بغضًا شديدًا بل وخوفًا من كل ما هو جميل أو طيب، وهؤلاء يسخرون من كل ما جاء في الكتب السماوية من كمالات وفضائل للإله وتدعونا للتخلق بها.

لكن لماذا يرفض هؤلاء الجمال والحسن والفضائل؟

السبب أنها تمثل قيودًا يعلمون أن عليهم الالتزام بها، بل ويسعى كثير من هؤلاء لتحطيم كل صاحب فضيلة أو جمال أو حسن أو صدق، حتى لا يعانون الشعور بدونيتهم.

يقول عالم اللاهوت الكبير» ك.س. لويس: «C.S. Lewis «إن أقوى أسلحة الشيطان ليست قوته على إقناعنا أنه ليس هناك إله، بل إقناعنا أنه لدينا متسعًا من الوقت».

لقد صار إنسان العصر الحديث يتمتع بمتوسط حياة أطول كثيرًا من ذي قبل وذلك نتيجة لتقديم علوم الطب وتوافر سبل الوقاية الصحية والتغذية

وقد أدى ذلك إلى ضعف الشعور بالحاجة إلى الإله فلا شك أن توقع الإنسان أن يحيا ثلاث عشر سنة تختلف عن توقعاته إذا أدرك أنه سيتجاوز الثمانين عامًا من العجز، فعندما يكون الموت بعيدًا والمعاناة الحياتية اليومية أقل ومستوى الحياة أفضل ليصبح الإله أبعد عن عقل الإنسان، وكلما عاش الإنسان أطول كلما صار تركيزه على «الآن وهنا» أي الفردوس الأرضي ومن ثم يزداد تمركزه حول ذاته وتبنيه للعلمانية والمادية والإلحاد.